

nadharyyatu azhzhaat 'inda 'alee sharee'atee, wasujounu
azhzhaat.

نظريّة الذات عند علي شريعتي، وسجون الذات

Ali Shariati's theory of the self, and the prisons of the self

أ.د. عداد حسن¹

المدرسة العليا للأساتذة بالقبة- hassane.addad@g.ens-kouba.dz

تاريخ الاستلام: 2024/9/19 تاريخ القبول: 2025/12/18 تاريخ النشر: 2025/12/30

Abstract :Ali Shariati (1933-1977), an Iranian thinker, sociologist, and political activist. At the Sorbonne, he obtained a doctorate in sociology and the history of religions. He was influenced by existentialism and phenomenology.

It proposes liberation from foreign domination; Political or economic, but also cultural hegemony. He believes that the West's human sciences are nothing but its modern means of ignorance, as man turns into a tool of consumption, or a machine in capitalist society, which is what he calls "the "The new warming up."

In this context, we will discuss an approach that distinguished Shariati in an attempt to understand the reasons behind the narrowing of the margin of freedom and self-independence that any person suffers. He believes that today's human being's personality has no choice, and is not aware of itself, due to a number of factors that control him. He is imprisoned in four prisons... and when he is freed from them... he is a human being in the realistic sense of a human being. "The prison of nature, the prison of history, the prison of society, and the prison of the self." We will mention his distinct conceptions, by presenting his concepts about these four prisons of the self, and how to be liberated from them.

Keywords: phenomenology, the self, the distorted self, prisons of the self.

الملخص: علي شريعتي (1933-1977)، مفكّر وعالم اجتماع، ومُناضِلٌ سياسيٌّ إيرانيّ. نال في السوربون دكتوراه في علم الاجتماع، وفي تاريخ الأديان. وتأثّر بالوجوديّة والظاهريّة.

يَطْرُقُ التَّحَرُّرُ مِنَ الْهَيْمَنَةِ الْأَجْنِبِيَّةِ؛ السِّيَاسِيَّةِ أَوْ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَلَكِنْ أَيْضًا الْهَيْمَنَةَ الْحَضَارِيَّةِ.. وَيَرَى أَنَّ عُلُومَ الْعَرَبِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَا هِيَ إِلَّا وَسَائِلُهُ الْحَدِيثَةُ لِلتَّجْهِيلِ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ الْإِنْسَانُ إِلَى أَدَاةٍ اسْتِهْلَاكِ، أَوْ آلَةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ الرَّأْسِمَالِيّ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ "الاستِحْمار الجديد".

كَمَا يَسْتَعْرِضُ شَرِيعَتِي التَّنَاقُضَ الْأَوْرُوقِيّ، بَيْنَ ادِّعَائِهِمُ التَّحَرُّرَ وَحِمَايَةَ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَبَيْنَ ارْتِكَابِ الْمِجَازِرِ خَارِجِ بُلْدَانِهِمْ. وَيَضْرِبُ الْمَثَلَ بِفَرَنْسَا الَّتِي لَمْ تَتَوَرَّعْ عَنِ ارْتِكَابِ الْمِجَازِرِ الْمَوْعُودَةِ فِي الْجَزَائِرِ، وَبِتَأْيِيدِ مَنْ مُفَكِّرِيهَا..

وَيَنْتَقِدُ الأَبْحَاءَ القَائِلِ إِنَّنَا أَمَامَ خِيَارَيْنِ؛ التَّغْرِيبَ وَالانصِهَارَ فِي حَضَارَةِ الأَخْرَ، أَو العَوْدَةَ إِلَى المَاضِي دُونَ تَمَحُّصٍ. وَيَطْرُقُ طَرِيقًا ثَالِثًا؛ وَهُوَ "العَوْدَةُ إِلَى الذَّاتِ" .. إِلَى الرُّوحِ الإِسْلَامِيَّةِ الأَوَّلَى، الخَالِصَةَ.

وَفِي هَذَا السِّبَاقِ، نَتَطَرَّقُ إِلَى تَنَاوُلِ، تَمَيِّزِ بِهِ شَرِيعَتِي، فِي مُحَاوَلَةٍ لِمَقْهَمِ أَسْبَابِ مَا يُكَابِدُهُ أَيُّ شَخْصٍ مِنْ تَضْيِيقِ لِهَامِشِ الحُرِّيَّةِ وَاسْتِقْلَالِيَّةِ الذَّاتِ. فَيَرَى أَنَّ إِنْسَانَ اليَوْمِ أَصْبَحَتْ شَخْصِيَّتُهُ لَا تَمْلِكُ اخْتِيَارًا، وَهِيَ غَيْرُ وَاعِيَةٍ بِذَاتِهَا، بِسَبَبِ جُمْلَةٍ مِنَ العَوَامِلِ تُسَيِّطِرُ عَلَيْهِ. فَهُوَ حَبِيسٌ سُجُونِ أَرْبَعَةٍ .. وَحِينَ يَتَحَرَّرُ مِنْهَا .. يَكُونُ إِنْسَانًا بِالمَعْنَى الوَاقِعِيِّ لِلإِنْسَانِ؛ سَجْنِ الطَّبِيعَةِ، وَسَجْنِ التَّارِيخِ، وَسَجْنِ المَجْتَمَعِ، وَسَجْنِ النَّفْسِ ". سَنَدْكُرُ تَصَوُّرَاتِهِ المِتَمَيِّزَةَ، مِنْ خِلَالِ عَرْضِ مَفَاهِيمِهِ حَوْلَ هَذِهِ السُّجُونِ الأَرْبَعَةِ لِلذَّاتِ، وَكَيْفِيَّةِ التَّحَرُّرِ مِنْهَا ..

كَلِمَاتُ مِفْتَاحِيَّة: الظَّاهِرِيَّة، الذَّاتِ، الذَّاتِ المَسْخُوحَةِ، سَجُونِ الذَّاتِ

المؤلف المرسل: عداد حسن

تمهيد:

سنتناول بالدراسة موضوعا حول نظرية الذات، من خلال تصورات أحد المفكرين المعاصرين، فنشرع في المقصود بتعريفه، ثم نوضح موضوع الذات، وتصوراتها التي أبدع فيها حول ما يسميها سجون الذات.

1. ترجمة علي شريعتي (1933-1977):

علي، محمد نقي شريعتي مزينائي، مفكر وعالم اجتماع، ومناضل سياسي إيراني. يُعتبر ملهم الثورة الإسلامية في إيران. وُلِدَ قُرب مَدِينَة سبزوار في خُرَاسَان عام 1933، وتخرَّج من كُليَّة الآداب، ليرشَّح لبعثة إلى فرنسا عام 1959.

درَسَ بجامعة السوربون، وحصل على شهادتي دكتوراه في علم الاجتماع، وتاريخ الأديان.

تأثر ببعض التيارات الفلسفية؛ كالوجودية، وفلسفة التاريخ، وعادَ إلى بلاده عام 1964، ليكرس جهوده من أجل نهضة أصيلة، تحرر العالم الإسلامي، وتُعِيدُ له كرامته المهذورة. لذلك، تتردَّد عبارات النهضة والإيقاظ كثيرا في كتبه. وهو يستخدمها مع مرادفاتِها استخدامًا لا يخرج عن المعنى العام، لكن ضمن سياقٍ فكريٍّ خاصٍ به، يُؤسِّسه على تحليلاتٍ نفسية-اجتماعية.

خلال وجوده في باريس تعاون مع جبهة التحرير الوطني، الجزائرية 1959، في عام 1960 بدأ القراءة لفرانتز فانون، وترجم بعض مختاراته إلى الفارسية. اعتقل في باريس عام 1961 بثمة المشاركة في تظاهرة تضامنية مع باتريس لومومبا أول رئيس وزراء منتخب للكونغو، والذي اغتالته الاستخبارات البلجيكية. في نفس العام، أسس حركة خريّة إيران في الخارج. في عام 1962 تابع دورات المُستشرق لويس ماسينيون (1882-1962) Louis Massignon، وجاك أوغيستان بيرك Jacques Augustin Berque وهو عالم اجتماع فرنسي، درس في جامعة الجزائر والسوربون. وعالم الاجتماع جورج جورنتش. كما تعرّف على الفيلسوف جان بول سارتر Sartre, JP.

اعتُقل بسبب نشاطاته السياسيّة في الخارج. وبعد إطلاق سراحه، بدأ التدريس بجامعة مشهد، ثم انتقل إلى طهران، ليؤسس عام 1969 حُسينيّة الإرشاد لتربية الشباب، فكان يُلقب بها مُحاضراته التي ما لبثت أن انتشرت بشكلٍ واسعٍ في صفوف طُلابه، وبين قطاعات المُجتمع الإيراني من الطبقات الوسطى والعلوية.

هذا الانتشار والنجاح الذي حقّقه شريعتي أثار سلطات الشاه، فأغلقت الحُسينيّة عام 1973 واعتُقل مع بعض طُلابه لمُدّة عامٍ ونصف، إلا أن الضّغط الدّاخلي، والشّجب العالمي، وتدخل الدبلوماسية الجزائريّة آنذاك، أدّى إلى الإفراج عنه في 20 مارس 1975.

غادر إيران إلى لندن في عام 1977، ووجد مقتولاً في شقّته بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إليها، أي قبل الثورة الإيرانيّة بعامين، عن عُمر 43 سنة، وكان الرأْي السائد أن ذلك تمّ على يد مُحابرات الشاه، لكنّ تقرير مُستشفى ساوثهامبتون ذكر أن سبب الوفاة نوبةً قلبيّة. دُفن الدكتور شريعتي في مقام السيّدة زينب في دمشق.

(https://ar.wikipedia.org/wiki/علي_شريعتي).

له عددٌ من المؤلّفات؛ منها: العودة إلى الذات، بناء الذات الثوريّة، الإنسان والتّاريخ، تاريخ الحضارة، الأمة والإمامة..

يطرح شريعتي التحرّر من الهيمنة الأجنبية على نطاقٍ لا يتحصّر في الهيمنة السياسيّة أو الاقتصاديّة، بل يتسع إطارها ليشمل الهيمنة الحضاريّة. فالهيمنة السياسيّة والاقتصاديّة فرضت الهيمنة الحضاريّة بالعنف، فصارت تُروّج لثقافتها التي تكسح ثقافة غيرها، وأصبحت الدولُ الخاضعة للاحتلال، سوقاً كبيرةً لسلع دول الاحتلال.

فالاحتلال الغربي لا يهدف فقط إلى تجريد المجتمعات والأُمم من سماتها الثقافيّة والتّاريخيّة، بل يهدف أيضاً إلى تشويهها. ولذلك اعتُبر نوعاً من إخضاع الآخرين، بتعميق الاعتماد المعنويّ والماديّ على الغرب. فالاحتلال غير مفصولٍ عن تصوّر الغرب العدواني لذاته وللعالم من حوله، حيث يسعى إلى توحيد الحضارات والثقافات والتّواريخ من وجهة نظرٍ غربيّة، عبر مَحو سمات الآخرين الثقافيّة والتّاريخيّة، مُبرراً ذلك بالتفوق الغربي على سائر العالم (عنان الحمد لله 2019).

وتولّد لدى شريعتي مُصطلح "الاستحمار" من تسخير الطبقات الحاكمة للمستضعفين ليعملوا أديها كالحمير، حيث ظلت شرع المُستبدّ، سواءً كان مُحتلاً، أو حاكماً محلّيّاً. ولمّا لم تُفلح هذه المُحاولات، بدأ الاحتلال في هدم البيت من الداخل، فبعد أن كانت وسيلته الحرب، أصبحت وسيلته أن نحتقر أنفسنا ونستهين بتاريخنا وراثنا، كي نُذوب في حضارته وقيمه وثقافته.. ويرى شريعتي أنّ علوم الغرب الإنسانيّة ما هي إلا وسائله الحديثة للتّجهيل، حيث يتحوّل الإنسان إلى بضاعة، أو أداة استهلاك، أو آلة في المُجتمع الرأسماليّ، وهو ما يُسميه شريعتي "الاستحمار الجديّد".

يستعرض شريعتي التناقض الأوروبيّ بين ادّعاء التّحرر وحماية حقوق الإنسان، وبين ارتكاب المجازر خارج بلدانهم. ويضرب المثل بفرنسا التي تُمثّل عاصمتها مركز الفنون والآداب، لكنّها لم تتورّع عن ارتكاب المجازر المروعة في الجزائر، وبتأييد من مفكرّيها.. فيقول إنّه لا يغفر لثورّيين كماركس وبرودون أن يُستعبد الشّرق بتلك الوحشيّة والهمجيّة، دون أن يُطرف لهم جفنّ.

ويذهب شريعتي إلى أنّنا لسنا بحاجة إلى استيراد قيم الغرب في الثّورة، وطلب الحقوق والحريّات. فتاريخنا حافلٌ بالنّماذج التي نستطيع أن نكتفي بها كرموزٍ من واقعنا، عاشت ظروفاً مشابهةً في مجتمعاتٍ تُشبه مجتمعاتنا، فيتمسّك بسيرة أبي ذرّ الغفاريّ، وسلمان الفارسيّ، وعليّ بن أبي طالب، والحسين، وفاطمة رضي الله عنهم، بدلاً من ماركس، وسارتر، وهيجل، ونييتشه..

وينتقد علي شريعتي الاتجاه القائل إنّنا أمام خيارين لا ثالث لهما؛ التّغريب والانصهار في حضارة الآخر، أو العودّة إلى الماضي - بما حمل من مساوئ - دون مُراجعتِهِ وتمحيصِهِ. ويطرّح طريقاً ثالثاً، وهو "العودّة إلى الذات"، إلى الرّوح الإسلاميّة الأولى، الخالصة المتجرّدة ممّا علق بها، فيناجي ربّه قائلاً:

"إلهي لا تجعلني مضطراً إلى التّرجمة والتّقليد، إنني أريد أن أُحطّم القوالب القديمة التي ورثتها، لأستطيع الصُّمودَ في وجه قوالب الغرب.. وليخرس هؤلاء وأولئك، فأنا وحيدي أريد أن أتكلّم".

2 - الذات، والذات الممسوخة، والعودة إلى الذات:

تناول شريعتي مفهوم الذات من منظور فلسفي، نفسي اجتماعي، معتبراً -أيضاً- أن أحداث التاريخ لها تأثيرها على هويتنا، ويبدو جلياً تأثره بالمدرسة الإنسانية. وذلك في سياق تفكيك عوامل الهزيمة النفسية، والدعوة الثورية للوعي، والتحرر والنهوض لتغيير الواقع المزري، وعدم السقوط في فخ قوالب الحضارة الحاكمة أو الخضوع لها.. وبكلمة، فهو يدعو إلى "العودة إلى الذات".

لا يختلف شريعتي عن غيره من أتباع التيار الإنساني في اعتبار أن الإنسان حر، وصاحب إرادة وكيان، فيقول: "أما الإنسان، فإن وجوده يسبق ماهيته، أي أنه لم يكن شيئاً، ثم وجد. ولما اكتسب الوجود، بدأ يبني شخصيته، ويكوّن ماهيته بنفسه. فالإنسان هو الذي يُعطي لنفسه المعنى والماهية والشخصية..". واستند إلى فكرة إخلاء الذات عند هايدغر، التي تُشير إلى أن: "الإنسان يملك وجودين؛ أحدهما ال (أنا) كموجود حي في المجتمع.. أما الوجود الثاني، فهو وجود تصنعه الثقافة وتثبته عبر التاريخ، وهذا هو الوجود الحقيقي الواقعي والإنساني للفرد..". وله دور في تكوين الوعي والتغيير الذاتي (عنه، زلاقي إيمان 2016، 8-9).

أمن بأن الإنسان يكون حرّاً أو لا يكون، وأمن أيضاً بالقيم السامية التي تُحقّق حرية الإنسان. ولم تخدعه الحضارة الغربية -وهو المعايش لها، الحافظ لشعاراتها- التي تُدافع عن القيم الإنسانية، ضمن منظور خاص، يُقسّم البشر إلى سادة وعبيد، أوقادة وتابعين.. (شافية صديق 2014).

كما أن الإنسان - في نظره - ليس على الدوام وليد بيئته أو ربيبتها، وأنه ليس مخلوقاً جبرياً خاضعاً للوراثة كما يعتقد علماء الإحياء (على أهميتها)، فهو يستطيع أن يكون من صنع نفسه، أي أن يكون شريكاً في بنية ذاته".

هذا الإصرار على إثبات الوجود الإيجابي المتخلص من كل رواسب دواعي الهزيمة، هو إصرار ثوري جذري شامل، يجتث من النفس عوامل التراجع والانهازم، هو جهاد داخلي يحرض على النهوض المستمر واليقظة المتواصلّة والعمل الفعّال من

أجل ترسيخ قيم الإنسانية؛ أي قيم الحرية، أي قيم الدين، أي قيم الفطرة السليمة، أي القيم التي أودعها الخالق في مخلوقاته، أي العودة إلى أصل الإنسانية ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ سورة ص، الآية 72 (شافية صديق 2014)، ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ الإسراء، الآية 70.

الذات الممسوخة لا يمكن - حسب شريعتي - أن تنتج إلا صوراً مشوهة من النشاط الإنساني.. الإنسان الفاقد للثقة في نفسه، المفتقد للخلفية الثابتة، يسقط فريسة سهلة للتيارات التي تجرف الصعاف، وتجعلهم - في أحسن الأحوال - قردة، يقلدون البشر الحقيقيين.. لا يمكن أن يُغيّر الواقع إلا إنسان غير نفسه، بأن أزال عنها كل ما يكدّر صفاءها، ويربك علاقتها بأصلها. والنفس الحرة لا تقبل إلا المجتمع الحر. لذلك، يبدو الارتباط بين صفاء الذات وتغيير الواقع ارتباطاً منطقيًا..

وفي هذا السياق، نتطرق إلى تناول، تميّز به شريعتي، وأبدع فيه، في محاولة لفهم أسباب حدود الإرادة، وما يكابده أي شخص من تضيق لهامش الحرية واستقلالية الذات، حيث يعتبر أن الإنسان هو حبيس سجون أربعة، يقترح طرق تخلص شخصيته منها:

3. - سجون الذات الأربعة:

يبحث شريعتي عن ماهية الإنسان، حيث يرى أن إنسان اليوم أصبح مجهولاً وغير واضح، لأن شخصيته أصبحت لا تملك إرادة، ولا حرية اختيار، وغير واعية بذاتها، وذلك بسبب مجموعة من العوامل تتحكم فيه، وتسيطر عليه. يقول: "إن أصل بحثي هو أن الإنسان حبيس سجون أربعة.. وبالطبع، فإنه يمكن أن يكون إنساناً حين يتخلص من أنواع الجبر الأربعة هذه.. حينها يكون إنساناً بالمعنى الواقعي للإنسان..". ويكرّر هذه الفكرة في أكثر من موضع في كتاباته.. يقول: تحت عنوان (سجون الذات الأربعة): "كنت قد ذكرت بأن الإنسان واقع في أسر أربعة سجون؛ سجن الطبيعة، وسجن التاريخ، وسجن المجتمع، وسجن النفس".

سنذكر تصوّراته المُتميّزة، من خلال عرض مفاهيمه حول هذه السجون الأربعة للذات، التي يُرتبها حسب قوّة تأثيرها، وينطلق من أقلّها أثرًا إلى أقواها، فيما يلي:

1.3 - السجون الأول: سجن الطبيعة:

والتي نصنّفها وتُشكّلنا.. فالطبيعة تعمل فينا كما تعمل في الموجودات الأخرى من الحيوانات والنباتات.. فتصنّفنا وتُشكّلنا على حسب قوانينها وسُننها التي أودعها الله فيها. والواقع.. أنّ الإنسان هو تلك الإرادة، وذلك الأنا الذي يستطيع أن يختار ويُدع، أن يفكر ويصنع.

من المذاهب التي سادت في الغرب؛ المذهب الطبيعي، الذي يعتبر الإنسان مسلوب الإرادة في مواجهة الطبيعة (الوراثة، والبيئة)، التي تمنح الإنسان شخصيته وتُشكّلها.. باعتبار أنّ الإنسان ظاهرة من ظواهرها، وهو أحد مقتضياتها، فهي تلقي بأعمالها عليه.. وهي تحبس الإنسان في إطار التكامل المحدود في الكيونة والمادة. ويؤيد ذلك، ما نلاحظه من الاختلافات البيئية بين سكان أنحاء مختلفة في العالم؛ حارة أو باردة، سهلية أو جبلية، حضرية أو بدوية، وما إلى ذلك.. يقول شريعتي: " أمّا بالنسبة لسجن الطبيعة، فنرى أنّ الأفراد مسجونون ومقيّدون حسب ظروفهم. إذن، فالإنسان مقيّد بقوانين جبر الظروف الجغرافية.. (شريعتي 2006، 90). ويعتبر هذا الجبر كارثة للذات الإنسانية في بناء شخصيتها بواسطة الوعي والإبداع..

يقدم شريعتي آليات تحرر الإنسان من هذا السجن، لينفي الدور السلبي للطبيعة على حرية الإبداع لديه، وعلى إرادته ووعيه، فيقول: " نستطيع أن نتحكّم بسجن الطبيعة والجغرافيا، بواسطة العلم ومعرفة الطبيعة، وإتقان العلم والتقنية" (شريعتي، 2006، 91). فنستفيد من منتوجاتها، من خلال الإبداع الفني للأشياء، وإخضاعها لإرادتنا. فيتمكّن إنسان صحراء إفريقيا - مثلًا - بعلوم الطبيعة والتكنولوجيا، أن يتجاوز جبر الطبيعة، ويتيح لنفسه الظروف الملائمة (زلاقي إيمان، 2017، 15) ليعيش فيها كما يعيش الأمريكي في صحراء كاليفورنيا...

2.3 - السِّجْنُ الثَّانِي: التَّارِيخُ:

إِنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ تَبْتَدِئُ عَنْ طَرِيقِ الوَعْيِ بِالتَّارِيخِ، لِأَنَّ تَبَعَاتِ أَحْدَاثِ المَاضِي تَتْرُكُ أَثَرَهَا عَلَى شَخْصِيَّةِ الإِنْسَانِ وَهُويَّتِهِ الحَاضِرَةِ. فَالإِنْسَانُ وَجُودُهُ تَشَكَّلَتْ مَا هِيئَتُهُ خِلَالَ التَّارِيخِ. وَالعَوَامِلُ وَالظُّرُوفُ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي المَاضِي لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَكْوِينِ وَبِنَاءِ كِيَانِ الشَّخْصِ، فَلَا يُمَكِّنُ تَصَوُّرَ إِنْسَانٍ دُونَ مَاضِيهِ. وَالتَّارِيخُ لَا تَقْتَصِرُ أَهْمِيَّتُهُ عَلَى سَرْدِ الحَوَادِثِ المَاضِيَّةِ، بَلْ تَمْتَدُّ لِإِعَادَةِ بِنَائِهَا مِنْ أَجْلِ فَهْمِ الحَاضِرِ وَاسْتِشْرَافِ المُسْتَقْبَلِ.

الإِنْسَانُ المُطَّلِعُ عَلَى مَاضِيهِ يُصْبِحُ إِنْسَانًا يَعِي ذَاتَهُ، وَيَتَعَامَلُ مَعَ الآخَرِ بِكُلِّ ثِقَةٍ. وَالذَّاتُ الإِنْسَانِيَّةُ هِيَ جُمْلَةٌ مِنَ الأَنْشِطَةِ وَالخَبْرَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الإِنْسَانُ عَبْرَ الزَّمَنِ.. وَمَاضِي الشَّخْصِ يُشَكِّلُ حَاضِرَهُ.

إِذَنْ، فَمَا يَمْلِكُهُ الإِنْسَانُ مِنْ خِصَائِصٍ وَمِيزَاتٍ، هِيَ مِنْ صُنْعِ التَّارِيخِ، الَّذِي يُحَدِّدُ وَيُكُونُ ذَاتَهُ. يَقُولُ شَرِيعَتِي: "فَالتَّارِيخُ -كَمَا قَلْتُ- بَأَنْنِي أَنْتَمِي إِلَى أَيِّ فِلْسَفَةٍ تَارِيخِيَّةٍ، لَكِنْ كَيْفِيَّتِي تَخْتَلِفُ تَمَامًا، وَأَنَا أَشْعُرُ بِأَنَّ إِرَادَتِي فِي كِيَانِي وَلَكِنَّا أَسِيرُهُ التَّارِيخِ وَسَجِينَتُهُ".. وَهُوَ يَقَرِّبُ هَذِهِ الحَقِيقَةَ بِمِثَالٍ؛ فَعَلَّهُ لَوْ أَنَّهُ وُلِدَ فِي تَارِيخٍ غَيْرِ تَارِيخِهِ، لَكَانَتْ لَهُ أَخْلَاقٌ وَلُغَةٌ وَدِينٌ، مُخَالَفَةً لِتَارِيخِهِ الَّذِي عَاشَهُ فِعْلًا.

وَيَعْتَبِرُ شَرِيعَتِي أَنَّ التَّحَرُّرَ مِنْ هَذَا السِّجْنِ يَبْتَدِئُ مِنْ خِلَالَ فَهْمِ حَرَكَةِ التَّارِيخِ، وَقَوَانِينِهِ، وَسُنَنِهِ. وَأَنَّهُ حِينَ يَحْدُثُ هَذَا الوَعْيُ، يَتَخَلَّصُ الإِنْسَانُ مِنْ حَرَكَةِ التَّارِيخِ الجَبْرِيَّةِ، وَيَبْتَدِئُ ذَلِكَ بِالعِلْمِ.

3.3 - السِّجْنُ الثَّالِثُ: المُجْتَمَعُ:

فَالنِّظَامُ الاجْتِمَاعِيُّ، وَطَبِيعَةُ العِلَاقَاتِ الطَّبَقِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، الحَاكِمَةُ عَلَى هَذَا المُجْتَمَعِ وَالتَّحَوُّلَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي دَاخِلِهِ، تَتْرُكُ أَثَارَهَا عَلَى تَكْوِينِ الشَّخْصِ، النَّفْسِيِّ وَالدَّهْنِيِّ.. " فَعَلَى قَدْرِ مَا يَتَدَخَّلُ المُجْتَمَعُ -دُونَ عِلْمِي- فِي بِنَاءِ ذَاتِي، وَلَمْ أَتَمَكَّنْ أَنْ أَسْأَلَكَ سُلُوكًا مُغَايِرًا لِذَلِكَ، فَأَنَا سَجِينٌ ذَلِكِ المُجْتَمَعِ.. " (شَرِيعَتِي، 2005، 27).

وَتَأْتِي هَذَا السِّجْنُ -حَسَبَ شَرِيعَتِي- أَقْوَى مِنْ تَأْتِيرِ سِجْنِ الطَّبِيعَةِ وَسِجْنِ التَّارِيخِ. يَقُولُ شَرِيعَتِي: "صَحِيحٌ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَهَا أَثَرٌ فِينَا، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالكَثِيرِ، وَصَحِيحٌ

أَنَّ التَّارِيخَ لَهُ أَثَرٌ فِي الْإِنْسَانِ وَبِنَائِهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَصْنَعُنِي - فِي الْوَاقِعِ - الْمُجْتَمَعُ وَالنِّظَامُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْحَاكِمُ عَلَيَّ.. " (الإنسان والإسلام، شريعتي 2007، 170)..

وفي تعليق الطَّيِّبِ والمُفَكِّرِ خَالِصِ جَلْبِي على فكرة سجن المُجْتَمَعِ، يَقُولُ: " الْمُجْتَمَعُ يَهْبُنَا الْمُعَادَلَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بَعْدَ الْبِيُولُوجِيَّةِ، فَيَجْعَلُ مِنَ الْفَرْدِ بَشَرًا سَوِيًّا، كَمَا يَفْرِضُ عَلَيْنَا السُّلُوكَ السُّوِيَّ، وَيُعَاقِبُنَا إِذَا خَرَجْنَا عَنِ الْقَانُونِ، بِأَشَدِّ مِنْ مُعَامَلَةِ الدَّجَاجِ وَهِيَ تُبْصِرُ الدَّمَّ فِي دَجَاجَةٍ مَجْرُوحَةٍ، فَتَنْفُرُهَا حَتَّى الْمَوْتِ.

وَحِينَ يَشُدُّ الْفَرْدُ عَنِ الْقَطِيعِ يُعَامَلُ بِالسُّخْرِيَّةِ وَالْأَذَى، وَالْإِثْمَامِ بِالْجُنُونِ، وَالنَّفْيِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْكَالٍ: مِنْ ظَهَرِ الْأَرْضِ إِلَى الدَّفْنِ فِي قَبْرِ السِّجْنِ، وَمِنْ دَفْنِ الْجَمَاعَةِ إِلَى بَرْدِ الْعُزْلَةِ، أَوْ مِنْ شَاطِئِ الْحَيَاةِ إِلَى سَفِينَةِ الْأَمْوَاتِ مَعَ أَنْوَبِيْسِ فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ.. " خَالِصِ جَلْبِي (2009، 43)..

وَلِلتَّخَلُّصِ مِنْ هَذَا السِّجْنِ، يَقْتَرِحُ شَرِيْعَتِي - أَيْضًا - وَسِيْلَةَ الْعِلْمِ، الَّذِي يُؤْهِلُنَا لِلْمُقَاوَمَةِ، لِلتَّخَلُّصِ مِنْ سَيِّطَرَتِهِ، وَاخْتِيَارِ مَا نُرِيدُ وَلَا نَبْقَى حَبِيْسِي هَذَا الْمُجْتَمَعِ، حَتَّى يُصْبِحَ الْمُجْتَمَعُ نَفْسَهُ مِنْ صُنْعِ أَيْدِينَا..

4.3 - السِّجْنِ الرَّابِعِ: سِجْنِ النَّفْسِ:

فَالنَّفْسُ أَشَدُّ السُّجُونِ وَأَمْنَعُهَا، وَالَّتِي تَحْبِسُ فِي دَاخِلِهَا تِلْكَ الْأَنَا الْإِنْسَانِيَّةَ الْحُرَّةَ. حَيْثُ تَصْطَدِّمُ النَّفْسُ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْغَرَائِزِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يُصِيبُ الذَّاتَ بِالْجُمُودِ وَالتَّحَجُّرِ..

" أَصْلُ الْقَضِيَّةِ؛ هُوَ أَنَّ هَذَا السِّجْنَ لَمَّا كَانَ جُزْءًا مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكَّنْ مِنَ التَّمَرُّدِ عَلَى نَفْسِهِ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ السُّجُونُ الثَّلَاثَةُ خَارِجَةً عَنِ سِجْنِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ الْعَالِمِ، فَهُوَ يَتِمَّكَّنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا..

فَالْإِنْسَانُ بِالْعِلْمِ، يَتِمَّكَّنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ سِجْنِ الطَّبِيعَةِ.. وَبِهِ أَيْضًا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ مِنْ سِجْنِ التَّارِيخِ، وَمِنْ سِجْنِ النِّظَامِ السَّائِدِ عَلَى الْأَصُولِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ.. وَلَكِنْ لِلْأَسْفِ، لَا يَتِمَّكَّنُ بِالْعِلْمِ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ سِجْنِ نَفْسِهِ، لِأَنَّ هَذَا الْعَالَمَ هُوَ نَفْسُهُ سِجْنٌ، وَنَفْسُ هَذَا الْعِلْمِ هُوَ عِلْمٌ سَجِينٌ. " يَصِفُهُ شَرِيْعَتِي بِقَوْلِهِ: " .. بَلْ هُوَ سِجْنٌ أَحْمَلُهُ مَعِي.

لهذا، فإنَّ الوَعْيَ بِهذا السِّجْنِ وَمَعْرِفَتَهُ أَكْثَرُ إِشْكَالًا مِنَ الْجَمِيعِ.. السِّجْنُ وَالسَّجِينُ هُنَا وَاحِدٌ.. الْمَرَضُ وَالْمَرِيضُ أَصْبَحَا وَاحِدًا. لِهَذَا، فَالشِّفَاءُ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ أَمْرٌ صَعَبٌ" (شَّرِيعَتِي 2006 الْإِنْسَانُ وَالْإِسْلَامُ، 185).

سَتَتَرَكُزُ اجْتِهَادَاتُ عَلِيٍّ شَّرِيعَتِي عَلَى التَّحَرُّرِ مِنْ سِجْنِ الذَّاتِ أَوْ النَّفْسِ، لِأَنَّهَا أَصْعَبُ الْعَمَلِيَّاتِ..

يَبْحَثُ شَّرِيعَتِي عَنْ وَسِيلَةِ التَّحَرُّرِ مِنْ سِجْنِ النَّفْسِ وَفَقَّ مَنْظُورٍ يَضْمَنُ جَذْرِيَّةَ التَّحَرُّرِ وَدَوَامَهُ.. وَيُحَدِّدُهَا فِي حِلٍّ غَيْرٍ مُتَوَقَّعٍ؛ أَلَا وَهُوَ الْحُبُّ، هَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي ابْتَدَأْتُ، يُعِيدُ إِلَيْهَا شَّرِيعَتِي وَهَجَّهَا وَقُوَّتَهَا.

" لَا أَعْنِي الْحُبَّ الصُّوفِيَّ وَالْعِرْفَانِيَّ وَأَمثَالَهُمَا، الَّتِي هِيَ سُجُونٌ أُخْرَى. الْحُبُّ بِهَذَا الْمَعْنَى، قُوَّةٌ قَادِرَةٌ أَسْمَى مِنَ الْعَقْلِ الْحَاسِبِ الْمَصْلَحِيِّ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي ذَاتِي أَنَا الْإِنْسَانُ.. فِي دَاخِلِ فِطْرَتِي، تُفَجِّرُنِي وَتُثْبِتُنِي عَلَى نَفْسِي مِنَ الدَّاخِلِ.. وَإِلَّا، فَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ بِالْقَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ التَّمَرُّدُ مِنَ الدَّاخِلِ، لِأَنَّ السِّجْنَ الرَّابِعَ جُزْءٌ مِنْ بَاطِنِي.. يَجِبُ أَنْ أَنْفَجِرَ مِنَ الدَّاخِلِ، يَجِبُ أَنْ أَلْتَهَبَ.. " (شَافِيَّةٌ صَدِيقٌ 2014).

أَمَّا عَنِ الْأَسْلُوبِ الَّذِي اخْتَارَهُ شَّرِيعَتِي، فَهُوَ أُسْلُوبُ مُخَاطَبَةِ النَّفْسِ بِالْعِبَارَاتِ الْمَلَأَى بِالْحَرَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، بَعِيدًا عَنِ الْأَسْلُوبِ الْجَافِ، الْحَيَادِي.. وَمُرَاهَنَتُهُ عَلَى مَا بَقِيَ فِي النَّفْسِ هُوَ الَّذِي يُبْرِزُ ذَلِكَ.

وَيُدْرِكُ شَّرِيعَتِي أَنَّ اخْتِيَارَ طَرِيقِ الْحُبِّ، وَمُحَارَبَةَ دَوَاعِي الْأَنَانِيَّةِ وَالْأَثَرَةِ، هُوَ اخْتِيَارٌ فِي عُرْفِ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ مَجْنُونٍ، وَغَيْرِ عَقْلَانِي.. وَلَكِنْ بَعِيدًا عَنِ هَذِهِ الْحِسَابَاتِ - وَمِنْ مَنْظُورِ رِسَالَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْكَوْنِ وَتَمَيُّزِهِ عَنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ - هُوَ عِنْدَهُ، الْاِخْتِيَارُ الْأَصُوبُ، وَهُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، أَيَّ إِلَى الدِّينِ الصَّحِيحِ.

فَالْبَيْسَبَةُ لِشَّرِيعَتِي، فَالْحُبُّ هُوَ عَطَاءٌ دَائِمٌ لِعَرَضٍ أَسْمَى، إِذْ لَا يَنْتَظِرُ الْإِنْسَانُ أَيَّ مُقَابِلٍ لِأَفْعَالِهِ، وَهُوَ طَرِيقُ التَّضْحِيَّةِ وَتُكْرَانِ الذَّاتِ فِي سَبِيلِ الْآخَرِينَ، أَوْ لِهَدَفٍ أَسْمَى. وَلِذَلِكَ، يُؤَكِّدُ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِمْكَانِ الْعِلْمِ وَالْمَنْطِقِ كَسْرِ السِّجْنِ الرَّابِعِ؛ سِجْنِ الذَّاتِ، لِكَوْنِهِ سِجْنًا ذَاتِيًّا وَدَاخِلِيًّا. فَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِكَسْرِهِ إِنَّمَا تَكْمُنُ فِي الْحُبِّ وَالشَّعْفِ،

والتَّحَوُّلُ إِلَى صَيْرُورَةٍ مُشْتَعَلَةٍ وَمُلْتَهَبَةٍ، عِنْدَئِذٍ فَقَطْ يَظْهَرُ الْإِنْسَانُ؛ قَدْ " خَطَى خُطَوَاتِهِ نَحْوَ صَيْرُورَةِ الْإِنْسَانِ، تَحْتَ شَمْسِ الْإِيمَانِ وَالْحُبِّ". (2007. 89 الإنسان والإسلام).

دَوَاعِي الْأُنَانِيَّةِ تَدْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَى نَبْذِ كُلِّ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ مَصَالِحِ الصَّبِيَّةِ.. أَمَّا الَّذِي يَخْتَارُ طَرِيقَ النُّهُوضِ وَالتَّغْيِيرِ، يَخْتَارُ ضَمْنِيًّا طَرِيقَ التَّضْحِيَّةِ، وَطَرِيقَ حَمْلِ هُمُومِ النَّاسِ. وَالتِّي تَبْدُو لِلْأَعْيُنِ السَّطْحِيَّةِ بِأَنَّهَا مُفَارَقَةٌ، هِيَ أَنَّ " الْإِنْسَانَ يُحَقِّقُ ذَاتَهُ بِإِنْكَارِهَا " !!.. وَالْحَقِيقَةُ -حَسَبَ شَرِيعَتِي- أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مُفَارَقَةٌ، وَلَكِنْ وَعِيًّا مُتَقَدِّمًا بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْحَاجَاتِ الصَّغِيرَةِ.. فَلَيْسَتْ الثَّوْرَةُ عَلَى مَشَاعِرِ الْأُنَانِيَّةِ وَعَلَى إِغْرَاءَاتِ الدُّنْيَا ثَوْرَةً صِدِّ الطَّبِيعَةِ، بَلْ هِيَ الثَّوْرَةُ الَّتِي تُحَرِّرُ الذَّاتَ مِنَ قَيْودِ الطَّبِيعَةِ الْمَادِيَّةِ الصَّبِيَّةِ، وَتَفْتَحُ أَمَامَهَا آفَاقَ السُّمُوِّ الْإِنْسَانِيِّ، فِي أَجْلِ الصُّورِ وَأَقْدَسِهَا..

عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ لَمْ يَشُدَّ بِهَا شَرِيعَتِي، فَقَدْ سَبَقَتْ إِشَارَةٌ مِنْ مُحَمَّدٍ قُطِبٍ (1919-2014) وَهُوَ يَقْتَرِحُ - مِنْ مَنظُورِهِ- " مُوَازَنَةَ الصِّرَاعِ فِي دَاخِلِ النَّفْسِ"، بِقَوْلِهِ: " يُوَازِنُهُ أَوَّلًا بِعُنْصُرِ الْحُبِّ. فَلَوْ أَنَّ الصِّرَاعَ نَبَتَ وَحْدَهُ دَاخِلَ النَّفْسِ - وَهُوَ طَاقَةٌ طَبِيعِيَّةٌ تَنْشَأُ نَشْوءً ذَاتِيًّا- فَلَنْ يُؤَدِّيَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ وَاحِدَةٍ؛ الْكِرَاهِيَّةُ وَالنُّفُورُ، التَّنَابُذُ وَالتَّنَاخُرُ، الْحَرْبُ الْمُدْمِرَةُ الَّتِي تَعْمَلُ لِلْهَدْمِ وَلَا تَعْمَلُ لِلبِنَاءِ.. وَالْحُبُّ نَبْتَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ، تَنْشَأُ نَشْوءً ذَاتِيًّا فِي بَاطِنِ النَّفْسِ، وَهُوَ سَابِقٌ فِي وُجُودِهِ عَلَى الْكِرَاهِيَّةِ وَالصِّرَاعِ..". (1962، 51). وَيُعَيِّرُ خَالصَ جَلْبِي عَنِ الْكِرَاهِيَّةِ، أَنَّهَا ارْتِدَادٌ عَلَى الذَّاتِ (مَنْشُورٌ عَلَى صَفْحَتِهِ الرَّسْمِيَّةِ فِي الْفَايسْبُوكِ 04 مَارِسَ 2022)..

خُلاصَةُ الْقَوْلِ.. حَسْبَ شَرِيعَتِي " أَنْتَنِي لَوْ أَضْرَمْتُ تِلْكَ النَّارَ، الَّتِي تَدْعُونِي
 لِلانْفِجَارِ مِنَ الدَّاخلِ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ جَبْرٍ.. لَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ جَبْرٍ لِلذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ! فالإنسانُ
 الَّذِي وُصِفَ بِأَنَّهُ تحتَ جَبْرِ الْمُجْتَمَعِ، وَجَبْرِ التَّارِيخِ، وَجَبْرِ الطَّبِيعَةِ لَمْ يَعدَ مَجْبُولاً
 على الجَبْرِ؛ "إِنَّكَ، أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، تَمْتَلِكُ جَبْرَ صُنْعِ الْمَسْئُولِيَّةِ حَسْبَ تَقْدِيرِكَ أَنْ (كُلَّ
 امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ)"، وَأَنَّ مَصِيرَهُ النَّهائِيَّ، هُوَ يَوْمَ يَرَى بِكِلْتَا عَيْنَيْهِ مَا صَنَعَ بِكِلْتَا
 يَدَيْهِ.. (الشَّهِيد د.علي شَرِيعَتِي-الإمامُ السَّجَّاد(ع).2007).

قائمة المراجع

خَلْبِي، خالص 2009 رسالة في الاستبّاد. مركز النَّاقِد. دمشق، سوريا.

زلاقي، إيمان 2016 مفهوم الذاتِ عندِ علي شريعتي ومالك بن نبي. مُدكّرة ماستر في الفلسفة. جامعة المسيلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة.

شافية صديق مدونة الدكتور شافية صديق 2014

<http://chafiaseddik.wordpress.com>

شَريعتي، علي 2005 بناء الذاتِ التَّوريَّة. دار الأمير للتَّقافة والعلوم. بيروت، لبنان.

شَريعتي، علي 2006 الإنسان والتاريخ. ترجمة خليل علي. دار الأمير للتَّقافة والعلوم. بيروت، لبنان.

شَريعتي، علي 2007-الإمام السَّجاد(ع).. أجمل رُوح عابدة. سلسلة الأعمال الكاملة 25. ترجمة إحسان صوفان. مراجعة حسين علي شعيب. دار الأمير للتَّقافة والعلوم. لبنان.

شَريعتي، علي 2007 الإنسان والإسلام. ترجمة عبّاس التَّرجمان. الأمير للتَّقافة والعلوم. بيروت. لبنان.

https://ar.wikipedia.org/wiki/علي_شريعتي.

عنان، الحمد لله 2014 علي شَريعتي؛ التَّصوُّف كإيديولوجيا. طواسين للتَّصوُّف والإسلاميات.

قُطب، مُحَمَّد 1962 في النَّفس والمُجتمع. ط 2. مكتبة وهبة، عابدين، مصر.